البناء القصصي والفني في الشعر الشعبي الجزائري
ـ قصيدة حيزية أنموذجاً ـ

Narrative and artistic construction in Algerian folk poetry
A spatial poem as a model

أ. زوقار بلقاسم*
belkacemzouggar1966@gmail.com
جامعة يحي فارس -المدية- (الجزائر)
د. أحلام الواج
ahlemlouadj1993@gmail.com
جامعة يحي فارس – المدية-(الجزائر)

الملخص:

تتناول هذه الورقة البحثيّة جانباً مهما من الأدب الشعبي، وهو الشعر البدوي المرتبط بالقصة التراثية القديمة، من خلال ديوان الشاعر محمد بن قيطون تخرج قصيدة حيزية مفعمة زاخرة بالجمالية والبناء القصصي المتين، والوصف الآخاذ، هذه القصيدة التي حضيت كثيراً باهتمام الدارسين والباحثين في ميدان الأدب الشعبي لما تحتويه من جوانب جمالية إلى جانب حضور السرد كامن في ثناياها. هذه القصيدة التي سردت جوانب من الحياة البدوية وركزت على الحب والجمال والتمسّك بالحياة من خلال شخصية حيزية، والتيه والضياع بعد فقدان الحبيب من خلال شخصية سعيد.

الكلمات المفتاحية: الأدب الشعبي، القصة، البناء الفني، الجمالية.

Abstract:

This research paper dealt with an important aspect of folk literature, which is Bedouin poetry linked to the ancient heritage story, through the poet Muhammad bin Qaitoun's poem, a spatial poem full of aesthetics, solid narrative structure, and a striking description, this poem which received much attention of scholars and researchers in the field of folk literature As it contains from the aesthetic aspects as well as the presence of the narration latent in its folds. In it there are aspects of Bedouin life, love, beauty, and adherence to life through a spatial personality, and wandering and loss after

*المؤلف المرسل

*losing a beloved through the personality of Saeed.**ey words**:word, word, word.*

Key words: folk literature, story, poetry, artistic construction, aesthetic.

*** *** ***

مقدمة:

كلما ذكرنا الأدب الشعبي إلا وربطناه بفئة الشعب وأفراده من المجتمع، حتى وإن لم يمتلكوا الشهادات العليا، إلا أنّهم يمتلكون المعرفة الخبرة في الحياة القدرة على نسج القصص وأساليب عرضها، ونظم الشعر وفق قوالب خاصة بهم. ينفعلون معها يتأثرون ويؤثرون في السامعين والقارئين. نستحضر معهم أيضاً فنوناً قولية تلقائية، انتقلت بمشافهة من جيل إلى جيل من غير ضرورة لمعرفة مؤلفة مادام نتاجاً يعبّر عن خبرات الإنسان وأحاسيسه ومشاعره بلغة عامية يفهمها المجتمع بكل أطيافه. وكم نجد متعة في تلقيه، ونحن في حلقة شعرية، أو في أحد الأسواق الشعبية نستمع لسلسلة من الأحداث بسردها المدّاح فيغرينا ويشوقنا بأحد قصصه الشعبية، وكم يطربنا شاعر بدوي بقصيدة تمتع آذاننا وتأخذنا بعيداً ، نحلل ونستنتج العبر والحكم.

من هذا المنطلق تتجلى قيمة وأهمية هذه الورقة البحثية والتي سيسعى الباحث من خلالها للكشف عن الخصائص الفنية والجمالية في النّص الشعري(حيزية)، هذا من جهة ومن جهة أخرى التعرف على البنيات القصصية في القصيدة، وبغية الوصول إلى هذا كان لزاماً على الباحث الإجابة عن جملة من التساؤلات منها:

. فيما تكمن خصوصية النص الشعري الشعبي ؟

.ما الخصائص الفنية التي تتميز بها القصيدة الشعبية ؟. كيف وظفت البنيات القصصية في قصيدة حيزية ؟ وللوصول لأجوبة شافية، هندسنا ورقتنا البحثية كما يلي:. مقدمة. 1. الشعر والقصة الشعبية(مفاهيم ونماذج). 2.ملامح البنية القصصية في قصيدة حيزية.

3. دراسة فنية جمالية لقصيدة حيزية. وخاتمة جمعنا فيها زبدة ما توصلنا إليه خلال دراستنا هذه الأخيرة التي دفعتنا عن قهر إلى اتّباع المنهج الوصفي التحليلي للوصول إلى المبتغى.

نسأل الله التوفيق والسداد

1: الشعر والقصة الشعبية(مفاهيم ونماذج)

إذا قلنا الشعر الشعبي أو القصة الشعبية، فإننا ندور في فلك واحد، اسمه: الأدب الشعبي، وهو مصطلح مركب من لفظين: أدب وشعبي تخصص الثانية معنى الأولى التي تتسم بالعموم والشمول يقول محمد سعيدي حول تعريف الأدب: " **ذلك الكلام الفني الجمالي رفيع المستوى من شعر أو نثر صادر عن أديب، كاتب أو شاعر وخاضع لمنطق لغوي فني معين**"[1]. بمعنى أنّ الأدب لابدّ أن يكون جميلاً بألفاظه ومضامينه أحسن الشاعر أو الكاتب نظمه وبناءه.

فالأدب الشعبي يستوي مع غيره من الأدب في هذه الصفات: من رفعة وجمالية وخضوع للمنطق الفني واللغوي أما لفظة: شعبي فمنسوبة إلى الشعب الذي هو المجموعة البشرية المنتمية إلى بلد واحد وأصل واحد أو أرض واحدة، ويحتكمون إلى قانون واحد ويشتركون في تاريخ متناه في القدم يقول مرسي الصباغ: " **نجد أن أول معاني الشعبية تكون في الانتشار، وبما أنّ الشعوب تمتد في تاريخها إلى جذور عميقة متناهية في القدم، لذا فإن المعنى الثاني للشعبية يكون في الخلود وعليه فإن كلمة الشعبية عندما نطلقها على أي شيء لا بد أن يتسم هذا الشيء بالانتشار والتوزع والتباعد المكاني والزماني، وبمصطلح آخر التداول والتراثية** "[2].

الإبداعات الشعبية سريعة الإنتقال لكونها تتحلى بصفة الشعبية، فهي لا يكون تداولها في حلقات مغلقة مثل الشعر الفصيح أو النصوص السردية التي تختص بنخبة من الشعراء والمبدعين ونسبة من القرّاء، وإن كان سمعية فلا يهتم بها إلا أهلها، بينما الأدب الشعبي شعراً أو نثراً فإنّه زئبقي في تحركاته، والدليل على ذلك ما حققته قصة حيزية في العالم العربي والعالمي من شهرة وانطباع في القلوب، والكثير من النصوص الشعبية من دول عربية أخرى وعالمية، نسمع بها على سبيل الحصر لا التعميم: قصص الغولة ولونجة بنت الهند هذا في المحكي العربي، وفي المحكي الغربي نجد الأقزام السبع، سندريلا وغيرها.

فشعبية الشيء لا تعني اتّصافه بالابتذال والإسفاف والضعة، وإنما تعني الانتشار والذيوع والتداول بين كل أطياف الشعب، يقول محمد سعيدي:"**إنّ الشعبي غير الشعبوي والشعوبي فالشعبي ما اتّصل اتصالا وثيقا بالشعب، إما في شكله، وإما في مضمونه، وأي ممارسة اتصفت بالشعبية تعني أنّها من إنتاج الشعب أو أنها ملك له**"[3].

فعادات كل شعب وتقاليده، وطقوسه، وكلّ نتاجاته القولية، والمادية ملك له، لأنّها نابعة من وجدانه قريبة من نفوس أفراده في حالي الإنتاج والتلقي، تقول نبيلة إبراهيم: " **إنّ الأدب الشعبي ينبع من الوعي واللاشعور الجمعي**"[4]. بمعنى أن ظهور الأدب الشعبي نابع من وعي ذو مقصدية فالمبدع ينفعل بما يشاهد ومايحدث في مجتمعه، أو لربما المناسبة الهامة تدفعه للكتابة والنظم في جو جماعي، فهو يشارك الجماعة ويتكلم بلسانها، ويعبر عن معاناتها ويتفاعل مع أفراحها وأتراحها.

ورد في كتاب: شظايا النقد والأدب تعريفاً متميزاً للأدب الشعبي:" **ذاكرة الشعوب، ووعيها الشفوي المحكي، والمرآة التي تعكس بصدق الماضي بكل ما ينطوي عليه من تقاليد وعادات اجتماعية وطقوس دينية، ومشاعر فردية أو جماعية**"[5]. فهو مرآة عاكسة لأوضاع المجتمع، مخلد لتاريخه معتز بتقاليده وعاداته معبر عن مشاعره فردية كانت أم إجتماعية مشتركة.

الأدب الشعبي مرتبط بالفلكلور عند الغرب، إذ أن هذا الأخير يستعمل للتعبير عن الإبداع الفردي بكلام مجهور شفاهي، في شكل حكايات، أشعار وأغاني وأمثال شعبية وبعض الحركات التمثيلية يقول التلي بن الشيخ في كتابه: منطلقات التفكير في الأدب الشعبي: " **مصطلح مركب من كلمتين فولك وتعني قوم أو شعب، وهي تعني المأثور**"[6]. بمعنى الرصيد الثقافي للشعب بمختلف أشكاله الثقافية وعراقة ذلك الشعب وتجذره في التاريخ.

أ. الشعر الشعبي في الجزائر

"الشعر الشعبي هو شكل من أشكال التعبير في الأدب الشعبي، **فهو إبداع شعبي شفوي، ونمط من الأنماط الثقافية الشعبية، كباقي الأنماط الشعبيّة الأخرى، يتضمن الأدب الشعبي الشعر،الغناء، الأحاجي والقصص والمعتقدات الخرافية والتقاليد، وكلّ عناصر التراث**"[7]. بمعنى أنّ مفهوم الأدب الشعبي يضم مجموعة من الفنون القولية كالأمثال الشعبية والأغاني والنكت والحكايات الشعبية.

ولعلّ على رأس هذه الفنون الشعر الشعبي "**ويطلق الشعر الشعبي على كل كلام منظوم من بيئة شعبه بلهجة عامية، تضمنت نصوصه التعبير عن وجدان الشعب أمانيه، متوارثا جيلاً عن جيل عن طريق المشافهة**"[8]، بمعنى

أنّ الشعر الشعبي تعبير عن طموحات الشعب فالشاعر من خلاله يسعى للرفع من همة شعبه والذود عنه، والإعتزاز به، ومشاركته الأفراح والأحزان.

نَاظِمُ الشعر لا يشترط أن يكون متعلما، فقد يكون يكون كذلك، وقد يكون أميّاً، **"وقائله قد يكون أميا وقد يكون متعلما بصورة أو بأخرى مثل المتلقي أيضا"**[9]. والسبب يعود إلى امتلاكه للبداهة والسليقة ذاك الإستعداد الفطري لقرض الشعر، وتلك القدرة على نظمه، وتلك الملكة التي تتفجر في نفسه وتجاربه في الحياة ومعارفه التي تلقاها على شيوخه، كل هذه العوامل هي التي صنعت منه شاعراً شعبياً فذاً.

هذه القوة الكامنة في الشعر الشعبي، هي التي دفعت النّخبة المثقفة الفرنسية إلى الاهتمام به بغية التعرف على البيئة الشعبية الجزائرية، يقول عبد الحميد بورايو: **" وما حظي منه بالاهتمام كان يرتبط ارتباطاً مباشراً بالثقافة المادية، واعتمده الباحثون الفرنسيون كمادة تصلح للكشف عن سلوك الإنسان الجزائري وردود أفعاله"**[10]. من هنا أدرك الباحثون الفرنسيون أنّ الشاعر الشعبي بمثابة المؤرخ المصوّر للأحداث التاريخية. وقد ترجمت هذه الأشعار إلى اللغة الفرنسية، ونشرت في مجلات متنوعة ودوريات مختلفة، مثل المجلة الإفريقية وغيرها.

والجزائر تزخر بنخبة متميزة من الشعراء الذي أبدعوا في أغراض متنوعة، من أبرزهم: سيدي لخضر بن مخلوف، والذي اشتهر بمدائحه لنبي صلى الله عليه وسلم وإلياذته الشهيرة التي وصف فيها معركة مزغران ضد الإسبان. ومحمد بن مسايب الذي عرف بقصائده الغزلية في فترة شبابه ثمّ تحوّل إلى المديح النبوي، وسي محند امحند من عمالقة شعر المقاومة بمنطقة القبائل، وعيسى الجرموني مبدع في تلحينه وغنائه. ومحمد بن قيطون الذي سنتناول إبداعاته الشعرية لاحقاً.

ب .القصص الشعبي في الجزائر:

هو أحد أشكال لتعبير مثله مثل الشعر الشعبي نشا في وسط المجتمع وعكس واقعه و طموحاته الفرق الوحيد بينما الأوّل منثور والثاني موزون مقفى حسب قوالب الشعر الملحون. **" القصص الشعبي بكل أنواعه تتداوله العامة ولا تهتم به الخاصة وهو في حقيقته أخبار مفردة تبعث من حياة الشعوب البدائية ومن تصوراتهم ومعتقداتهم ثم تطورت هذه الأخبار واتخذت شكلا فنياً على يد القاص الشعبي"**[11].

القصة وسيلة هامة من وسائل نقل الأخبار والتعريف بالتقاليد للمجتمعات الأخرى، إلا أنّه مع مرور الزمن أصبح للفنان الشعبي رؤى أخرى يبثها من خلال قصصه، مما يدل على تطوره فنا ومضموناً مواكبة منه لتطور العصر.

وقد عرفت الجزائر نوابغ في القصص الشعبي ولعلّ من أبرزع المبدعين:" **الشيخ السايح من واد سوف ومحمد بن تواتي من بسكرة وأحمد بلجرمة من بريان وبوطبل من الشلف وبولطباق من الحدود المغربية اشتهروا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي**"[12]. هذه نخبة مميزة فهناك مبدعون آخرون لا يقلون شأناً عن البارزين. ونذكر من أبرز القصص الشعبي:" **قصة غانم ولد الراعي، تظهر سمات الرجولة والشهامة**"[13].

وقد ارتبط القصص الشعبي بالخرافة، والأمور الغيبية وعالم الجن والسحر، تقول سهام سديرة في هذا الشأن: " **كما يلعب السحر دوراً كبيراً فمثلاً** قصة **بقرة ليتامى نجد أن آخ** لونجة قد **تحوّل إلى غزال بمجرد شربه من** منبع مسحور"[14] وهناك حكايات أخرى وردت

في مدونة تسعديت ياسين ناسيب يوسف:
" الفلاح والذيب بونوارة وخريص بوخروصة المكتوب هارون الرشيد جازية ودياب سعيد الجوهر في خيوطها خنيفسة لالات نسا، لونجة مولاة سبع سوالف المعزة الصينية القطيط والقوير الحبة السحرية"[15].

2. ملامح البنية القصصية في قصيدة حيزية

سنحاول في هذه المقاربة السردية التطرق إلى جملة من البنيات القصصية وتحليلها، وقد اخترنا منها: البنية المكانية، البنية الزمانية الأحداث والشخصيات، وهذا من خلال التنقيب والحفر عن هذه البنيات أو العناصر في قصيدة حيزية:

أ . البنية المكانية:

للمكان دور بارز في النّص السردي ، وعلى وجه الخصوص النص القصصي فهو" **العمود الفقري للنص القصصي والإطار الذي تقع فيه الأحداث إذ يشكل عالما من المحسوسات قد تماثل عالم الواقع"**[16].

معنى هذا أن للمكان دور محوري في إظهار الأحداث وجعلها أمام القارئ مجسدة محسوسة وهذا ما لمسناه في النّص الشعري حيزية. يمكننا تقسيم الأماكن الواردة في النص الشعري والذي يحضر فيه السرد بقوة إلى أماكن كثيرة أبرزها: أماكن الإستقرار، وأماكن الترحال.

. أماكن الاستقرار:

تتجلى الأماكن في قصيدة حيزية من خلال ذكر الشاعر محمد بن قيطون للقرية والتي تعتبر حيزاً أو فضاء سرديا مهما تنبني عليه القصة، وككلمة تعتبر القرية بنية دالة على بساطة الحياة ونقاء النفس البشرية، وقد ورد ذكرها في نهاية النص الشعري:

في خالد بن سنان بن قيطون فــلان
قالت على اللي زمـان شفناها حيـا[17]

ويقصد هنا قرية سيدي خالد مسقط رأس حيزية الفتاة الجميلة العفيفة الطاهرة التي أحبت ابن قبيلتها سعيد، ليختتم هذا الحب الطاهر النقي بالزواج، إلا أنّ الأقدار تفرق بينهما بموت حيزية مما يدفع بسعيد إلى الوقوع في نوبة من الحزن والأسى، وفي رواية قيل أنه تاه في الصحراء ولم يوجد له أثر. كما يذكر الشاعر ما يدل على المكان، وما نسميه بالقرينة، كذكره للستار والحيال:

مايسواشي المال نقحات الخلخال
كي نجبي ع لحيال نلقى حيزية[18]

. **أماكن الترحال**: عرفت القبيلة التي كانت فيها حيزية بالتنقل من مكان إلى آخر، وهذا الأمكنة:
" تكون مسرحاً لحركة الشخصيات وتنقلاتها وتمثل الفضاءات التي تجد الشّخصيات وتنقلاتها وتمثل الفضاءات التي تجد فيها الشخصيات نفسها كلما غادرت أماكن إقامتها الثابتة"[19]. فقصيدة حيزية تسرد لنا رحلتي الصيف والشتاء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، والتي عرف بها العرب قديماً، فقد كانت قبيلة بني هلال كانت تتجه إلى التل صيفا بحثا عن الماء والكلأ، ثم يعودون أدراجهم في الشتاء، وإذا تعمقنا أكثر نجد أن القصيدة تزخر بالأماكن المتنوعة في قوله:

ساقوا حجاف الدلال حطوا عين أزال
سيدي لحسن اقبال والزرقــة هيـــا
قصدوا سيدي سعيد والمتكوك زيـــد
حطو روس الطوال في ساحة لرمال
وطن أولاد جلال هو غناق المشية[20]

كما ذكر الشاعر مكان وفاة حيزية، وهو موقع سردي هام في النص الشعري، فالحضور السردي لهذا المكان كان له وقع على الشاعر والقارئ، وعلى كل السامعين لهذا النص الشعري القصصي، لسبب أن هذا المكان نقطة محورية سردية وفضاء سردي هام في أحداث قصة حيزية:

في واد داتل انعيد حاطين سماط فريد
رايسة الغيد وادعتني يا خويا [21]

ومن شدة تأثر الشاعر وانفعاله خلال سرده لأحداث وفاة حيزية، فإنه وظف تعابير دالة على المبالغة من خلال مساواتها بما خلق الله من أمكنة، كالجبال والأودية، ونلاحظ ذلك في مقاطع كثيرة من نصه الشعري، حيث يقول:

تسوى ميتين عود من الخيل الجيد
ومية فرس زيد غير الركبيـــا
تسوى من الابيل عشر مايه تمثيل
تسوى غابة النخيل في كل الدنيـا
تسوى عرب التلول والصحرا والزمول
ما مشات القفول عن كل أثنيـا
تسوى اللي راحلين واللى فالبرين
تسوى اللى حاطين عادوا حضريـا
تسوى خيل الشليل و نجمة الليـل
في أختي قليل قليل طبي ودوايـا
نستغفـــر للجليل يرحم ذا القليـل
يغفر للى يعيل سيدي وملايـــا[22]

يتجلى لنا في نهاية المطاف أنّ المكان ركيزة مهمة في البناء القصصي، وقد تجلى لنا من خلال النص الشعرية ذو صبغة قصصية فقد تمكن الشاعر من بناء نص قصصي في قالب شعري، يحوي المكان بدقة يساعد القارئ على فهم الوقائع والأحداث، " **فالمكان دعامة من دعامات البناء القصصي فهو يساهم في خلق مناخ ضروري يساعد القارئ على تجسيد المواقف وتحليل الأبعاد النفسية والاجتماعية والفكرية للشخصية**"[23]. معنى هذا أنّ المكان بناء قصصي هام في اللعبة السردية يقوي الأحداث، ويشوق المتلقي، ويكشف عن هوية الشخصيات وخلفياتها الاجتماعية والفكرية من خلال الأمكنة التي تتواجد فيها.

ب . البنية الزمانية:

الزمن بنية سردية لا تقل أهمية عن البنية المكانية، بسبب الدور الفعال الذي تلعبه في بناء النص القصصي،"**إنّ للزمن في بناء القصة دوراً يشبه ذلك الذي يلعبه اللون في اللوحة الزيتية، فهو يعطي للحدث صبغة تشير للحين الذي وقع فيه، وتضفي على الجو العام ضلالاً توحي بأبعاد دلالية تسمح بها التأويل**"[24]. والقصيدة القصصية" حيزية" زاخرة بهذه الأبنية الزمانية:

بين موتها والكلام غي ثلاث أيـام
بقاتني بالسلام وما ولات ليـــا[25]

وقد اهتم الكثير من الدارسين بالزمن، فهذا **منفيست** قسّمه إلى قسمين: الزمن الفيزيائي للعالم، وزمن الأحداث، كما ذهب سعيد يقطين إلى تقسيمه إلى ثلاث: قسم الدارسون ونقاد السرديات الزمن إلى ثلاثة أقسام، وهي: زمن القصة، زمن الخطاب، زمن النص.

. زمن القصة: زمن القصة هو زمن عادي بسيط يخضع للترتيب المنطقي للأحداث، وسنقوم من خلال هذا المبحث الكشف عن البنيات الزمانية في النص الشعري القصصي"حيزية". يقول سعيد يقطين:

" البنيات الزمانية إطار لأفعال الفواعل وموضوعا للإدراك من خلال الفواعل. وإذا تمعنا في نهاية القصيدة نجد أن الشاعر محمد بن قيطون قد أرّخ لنصه الشعري، و الذي نظّمه سنة 1877، ومع العلم أنّ حيزية توفيت في سن الثالثة والعشرين، فإذا أنقصنا مدة حياتها من سنة نظم القصيدة،نجد زمن القصة، حيث وقعت أحداث العلاقة الغرامية بين حيزية وسعيد وهي سنة 1854"[26]. ويتجلى زمن القصة من خلال مخططنا التالي:

يقول الشاعر:

بين موتها والكلام غي ثلاث أيـام
بقاتني بالسلام وما ولات ليـــا
تمت يا سامعين في الألف وميتين
كمَّل تسعين وزيد خمسا باقيـــا
كلمة ولد الصغير قلنـاها تفكيـــر
شهر العيد الكبير فيه الغنـايـــا[27]

في هذا المقطع يتجلى لنا زمن آخر متعلق بنظم القصيدة بعد وفاة البطلة حيزية، في تلك الفترة كان هناك اتصال بين حبيبها سعيد والشاعر محمد بن قيطون، حيث حكى له قصته مع حيزية فتأثر بها فنظم قصيدته، ورواية تقول أن المغرم بحيزية هو **محمد بن قيطون** نفسه، ويتجلى من خلال الكلمات الدالة على شدة التأثر:

وإذا تمشي أقبـال تسلب العقـــال
أختي بـاى المحال راشق كمـياً
طلقت ممشوط طاح بروايح كى فاح
حاجب فوق اللماح نونين برياً
عينك قرد الرصاص حربى فى قرطاس
سـورى قياس فى يدين حربياً [28]

نستنتج أنّ زمن القصة هو الزمن الحقيقي، وله دور كبير في بناء المتن الحكائي، وتجلى ذلك من خلال قصيدة حيزية التي مكنتنا من معرفة زمن القصة(1854)، و الذي أدركناه من خلال القصيدة التي أخبرتنا عن سنة النظم(1877) وحتى فترة حياة الشخصية حيزية(23سنة). وهنا يمكن القول أن زمن القصة هو الزمن الحقيقي لوقوع القصة لا زمن النظم.

. **زمن الخطاب**: يمكن تحويل زمن القصة إلى خطاب، أو جعله يتماشى وفق منظور أو رؤية حطابية ما معينة، وهذا من خلال ربط العلاقة بين الراوي والمروى له. يقول سعيد يقطين في هذا النوع من زمن السرد: **" هو الزمن الذي يمكن الوقوف عند البنيات السردية في علاقتها بزمان القصة"**[29].

ويمكن إدراك ذلك من خلال المقطع التالي:

عزوني يا ملاح في رايس لبنات
سكنت تحت اللحود ناري مقديا [30]

الملاحظ هنا أن الشاعر ينطلق من زمن النهاية أي وفاة حيزية ويتحسر على فراقها، وهذا الترتيب يخالف زمن القصة المبني على التسلسل، ثم يباشر بعد ذلك ليبين حسرة حبيبها سعيد، والألم الذي لحقه جراء فقدانه لحبيبته حيزية:

يا خي أنا ضرير بيا مابيا
قلبي سافر مع ضامر حيزية [31]

ثم نجد الشاعر يتسعمل تقنيّة الاسترجاع فيعود بنا إلى ماضي حيزية، فيصف لنا جمالها ولباسها وعطورها، ويتحسّر على تلك الأيام الخوالي:

في ذا الليلة وفات عادت في الممات
كجل الرمقات ودعت دار الدنيا [32]

ثم يختم قصيدته بالدعاء لها، وحث سعيد على الصبر والتجلد:

ياعلام الغيوب صبر ذا المسلوب
يبكي بكي الغريب وايشف العدية [33]

. **زمن النص**: هو زمن التأليف، و التلقي أيضاً أو زمن القرّاء، أي فترة القراءة والحكم على النص ومنه يمكن القول علاقة النص بالمجتمع ومتذوقي لغته وجماليته، والمسماة بمحيط السيوسيو-لساني .Socio - Linguistique.

يقول سعيد يقطين في هذا المجال:" **البحث في زمن النص في ظل السير الشعبية يكاد يكون مستحيلا وذلك بسبب استحالة القطع بصحة نسبها إلى المؤلف المعين**"[34]. هذا في القصص الشعبي النثري، لكن في الشعر الشعبي لاحظنا أنّ الشاعر يؤرخ لإنتاجه الإبداعي، كما فعل محمد بن قيطون، حيث حدد الزمن، شهر ذي الحجة(1295هـ - 1877م):

تمت يا سامعين في الألف ومتين

كمل بتسعين وزيد خمسة باقية [35]

من خلال قراءتنا لزمن القصيدة القصصية، تبين لنا دور الزمن في بناء النص الشعري الذي يحوي أهمّ عناصر القص من زمان ومكان وأحداث وشخصيات وتقنيات سردية وظفها الشاعر وادخل المتلقي في لعبته السردية وأثار فضوله ومما جعل النص غاية في الاتساق والبناء المحكم هو تداخل هذه الأبنية القصصية.

3: دراسة فنية جمالية لقصيدة حيزية

قصيدة حيزية متميزة بجمالها اللغوي وإيقاعاتها الموسيقية مما منحها بناء جماليا وفنيا أخاذاً ويمكن إبراز هذه الجماليات من خلال اللغة الشعرية، مستوى الألفاظ، المستويات النحوية والصرفية، الصور الشعرية،الموسيقى الشعرية الأبعاد الجمالية للإيقاعات.

أ. اللغة الشعرية:

اللغة بناء هام في النص الشعري **وحتى النثري ووسيلة تواصل مع المتلقي، وهي: " مجموعة مصطلحات وتراكيب التي يعبر بها كل قوم عن مقاصدهم**". [36] بمعنى نظام لغوي منسجم يؤتى به للتعبير عن رؤى وخلفيات معينة. ولغة الشعر الشعبي الجزائري هي الدارجة وهي في الأصل لغة فصيحة إلا أنه أصابتها بعض التغييرات يقول عبد المالك مرتاض:" **معظم ألفاظ العامية الجزائرية فصيحة وإنما أفسدتها العامة بألسنتها**"[37]. ورغم كل هذا فالشاعر يمتلك قوة إبداعية ولغوية وهذا ما نجده عند محمد بن قيطون من خلال العديد من المستويّات.

. **الألفاظ**:

تمّ توظيف ألفاظ عامية لكن مصدرها فصيح وهذا ما يدل على أنّ الرصيد اللغوي للشاعر محمد بن قيطون مشبع بالثقافة العربية الأصيلة، فقد حفظ القرآن الكريم منذ صغره، وتمكن من المتون اللغوية وحفظ أشعار القدامى كالشعر الجاهلي على سبيل المثال لا الحصر. وإذا أخذنا مطلع القصيدة نجد هذا التوظيف للعامية القريبة من الفصحى:

عزوني يا ملاح في رايس لبنات

سكنت تحت اللحود ناري مقدية[38]

فالملاحظ على المفردات العامية أنّ لها أصول في اللغة العربية الفصحى، ويتجلى هذا من خلال الجدول التالي:

الكلمة بالعامية	أصلها بالفصحى
عزوني	من العزاء
ملاح	من الملحة وطيب الكلام
رايس	رئيس وعمدة
لبنات	البنات
اللحود	من اللحد والقبر
مقدية	من التوقد الاتقاد الموقد

جدول رقم(01): علاقة العامية بالفصحى

الملاحظ على الجدول أنّ لفظة" عزوني" أصلها العزاء، جيء بها بصيغة الأمر بغية التماس وطلب العزاء، وملاح واضحة بمعنى أملح أي حسن الخلق، وهكذا دواليك كما في الجدول أعلاه، ونجد هذا في مقطع آخر:

بن صغير قصاد بموسم لعضاد
بعد أن قطعوا لواد زادو للحنية[39]

قصاد معناه في الفصحى القصد ومنه القاصدون، وقطعوا بمعنى القطع، وغيرها فكل هذه البنيات اللغوية نجدها في مجمل القصيدة مما يدل على الترابط القوي بين اللغة الفصحى والعامية، وهذا الذي أضفى على النص الشعري مسحة جمالية.

. الصور البيانية والمحسنات اللفظية:

الصورة الشعرية تشكيل وصناعة ونسيج محكم يمنح الكلام مسحة جمالية، يقول الجاحظ: " **الشعر صناعة وضرب من النسيج وحسن من التصوير**".[40] معنى هذا رسم وفن جمالي وصناعة للصور المعبرة المجسدة للواقع، ويتجلى ذلك في التشبيه والكناية على وجه الخصوص، إلا أنه هناك صور أخرى ومحسنات بديعية لآخاذة فلقد ركزنا على نموذجين فقط.

. التشبيه: يتجلى بكثرة في قصيدة حيزية، مما أضفى على النص الشعري القصصي حركية في الأحداث وجمالية في المعنى، حيث يقول الشاعر:

ياحسره على قبيل كنا في تاويل
كي نوار العطيل شاو النقضيه[41]

يشبه الشاعر سعيد وحيزية بأزهار المروج في بداية فصل الربيع، كما يشبه حيزية بجدي الغزال والخيال بسبب جمالها، حيث يقول:

ما شفنا من دلال كيضي الخيال
راحت جدي الغزال بالجهد عليا [42]

. الكناية:

يقول الخطيب القزويني عن الكناية: " **هي لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه**"[43]. معنى هذا أنّ الكناية إطلاق كلام على وجه الحقيقة وإيراد به معنى آخر غامض يفهم من سياق الكلام وتتجلى الكنايات في كثير من المقاطع الشعرية:

عينك فرد الرصاص حربي في قرطاس
سوري قياس في يدين الحربية
في ذا الليلة وفات عادت في الممات
كحل الرمقات ودعت دار الدنيا[44]

تتجلى الكناية في إطلاق كلمة الرصاص وإيراد به معنى آخر وهو الجمال والحسن وقوة تأثيرهما على الإنسان وبالخصوص سعيد والشاعر نفسه وحتى المتلقي. وفي لحظة دفن حيزية يرمي الشاعر محمد بن قيطون بكلام يريد به معان ودلالات كثيرة، ويتجلى ذلك في قوله:

حشمتك بالكتاب وحروف الوهاب
ما طيحش التراب فوق أم مرايه [45]

يدعو الشاعر حفار القبور ويستسمحه ويترجاه أن لا يرمي التراب على حيزية، والحقيقة هذا أمر واقع لا مفر، ولكن أراد الشاعر معنى آخر التعبير عن مدى تأثره بوفاة حيزية، ويدعو للرأفة بها حتى وهي جثة هامدة، ويقول عنها: أم مرايه ويقصد هنا المرآة كتعبير واقعي لمنه كناية على صفاء الوجه ونقائه.

ب. البعد الجمالي للإيقاع:

الإيقاع بنوعيه الداخلي والخارجي وظيفتهما التأثير في السامع وجلب انتباهه، فهذه الإيقاعات تشكل بنية النص ولونه تغري المتلقي فيستمع إليها فيتأثر وجدانيا وعاطفيا.

ولعل أبرزها القافية والوزن: القافية: القافية صوت موسيقي هام في بناء النص الشعري، ومنحه ذوقا جماليا متميزا يشد السامع ويلفت انتباهه و" **للقافية قيمة صوتية ودلالية مهمة في الخطاب الشعري ويسمونها في الشعر الملحون بالحرف**"[46].

استخدم الشاعر القافية، وتمثل في حرف الياء موصولا بالمد أو ألف المد وتكرر هذا الروي من بداية القصيدة إلى آخرها فقد خرج من هذه القافية نغما حزينا عند تكرار الحرف (الياء) على طول القصيدة ومنه استطاع الشاعر ان يخرج ما يختلج في صدره من هموم وأحزان فحرف الياء يتناسب ودلالات الأسى والفقد.

الوزن: تفعيلات بحور الشعر العربي الفصيح تختلف عن تفعيلات الشعر الشعبي فقد يجمع الشاعر بين مقاطع كثيرة بتفعيلة واحدة وقد تختلف لذا سميت الرباعيات أي اثنان متشابهان والأخرى مختلفتان وقد تقترب تفعيلات الملحون من تفعيلات البحر البسيط(مستفعلن) وتبقى التفعيلات الأخرى مجهولة الوزن أي أنّها سماعية وليست قياسية ولا تخضع لقاعدة معينة على سبيل المثال:

طَلْـقَـتْ مَـمْشُـ	ـوْطْ طَاحْ بَـارُوْ	يَـحْ	كِيْ فَاحْ
/ 0 / 0 /	00 / 00	0/0/ 00	/0/ 00
مستفعل	؟	؟	؟

مخطط رقم(02): تقطيع تفعيلات الشعر الملحون

رغم أنّ التفعيلات سماعية، إلا أنّها متميزة بإقاعاتها وقيمتها الصوتية وجماليتها ووقعها على السامع. مما يدلّ على جمالية الشعر الشعبي وقوته الصوتية.

خاتمة:

لقد تجلت لنا من خلال هذه الورقة البحثية البسيطة أن قصيدة حيزية تحوي فنيات القصة من زمان ومكان وشخصيات وأحداث مثيرة، من خلال تعرفنا على قصة الحب العذاري بين سعيد وحيزية، كما اكتشفنا شخصيات مثيرة ساهمت في تحريك اللعبة السردية، إلى جانب تقنيات الاسترجاع مل هذه الخصائص والأنماط السردية ساهمت في بناء نص شعري قصصي بامتياز.

من جهة أخرى أنّ القصيدة الشعبية المنظومة تخرج عن المستويات النحوية والصرفية إلا أنها تتقاطع مع الكلمات الفصحى كثيرا كما تعتمد على الموسيقى بنوعيها الداخلية والخارجية مما يمنح للإبداع الشعري الشعبي جماليات ودلالات متنوعة ثرية. ومن هنا يمكن القول أن النص الشعري الشعبي بناء فني وجمالي متكامل وإبداع أدبي له قيمته ودوره في المجتمع ولفت انتباه النقاد والدارسين.

ملاحق: **أ . الشاعر في سطور:**

محمد بن قيطون الصغير البوزيدي هو الشاعر المخلد لقصة سعيد وحيزية، ولد عام 1843. في مدينة سيدي خالد، درس القرآن واللغة العربية في الزاوية المجاورة لبيته، وهي زاوية سيدي علي الجروني التي ما زالت قائمة إلى حد الآن. كتب الشعر وهو شاب يافع توفي عام 1907، ولقد استفاد من شعره عدة شعراء من بعده مثل بن زغادة والشيخ بن يوسف الذين ولدوا في الأعوام الأخيرة من حياته.

ب . من القصيدة الشعرية: حيزية

عزوني يا ملاح في رايس لبنات * سكنت تحت اللحود ناري مقديا
ياخي انا ضريـــر بيا مـا بيا * قلبي سافر مع الضامر حيزيه
يا حصراه على قبيل كنا في تاويل * كي نوار العطيل شاو النقصيا
مـا شفنا من أذلال كي ظل الخيال * راحت جدي الغزال بالجهد عليا
وإذا تمشي أقبال تسلب العقال * أختي باي المحال راشق كميا
طلقت ممشوط طاح بروايح كي فاح * حاجب فوق اللماح نونين بريا
عينك قرد الرصاص حربي في قرطاس * سورى قياس في يدين حربيا
خدك ورد الصباح و قرنفل وضاح * الدم عليه ساح مثل الضوايا
شوف الرقبة خيار من طلعة جمار * جعبة بالنر و العواقد ذهبيا
في بازر حاطين أنصبح في الزين * واحنا متبسطين في خير الدنيا
نصبح في الغزال انصرش للقال * كالي ساعي المال وكنوز قويا
ما يسواش المال نقحات الخلخال * كي انجبي للجبال نلقى حيزيا
تتسحوج فالمروج بخليل تسوج * عقلي منها يروج قلبي وأعضايا
فالتل مصيفين جينا أمحدرين * للصحراء قاصدين نا والطوايا
الأجحاف مغلقين و البارود إنين * الأزرق بي يمين ساحة حيزيا
ماذا درنا أعراس لزرق في المرداس * يدرق بي خلاص في روحنيا
تاقت طول العلام جوهر فالتبسام * تمعنى فالكلام و تفهم فيا
بنت حميده اتبان كي ضي الومان * نخلة بستان غي وحدها شعويا

زنـد عنها الريح قلعها فالسميح * ما تحسبها أطيح دايم محضيا
في واد أثل نعيد حاطين سماط فريد * رايسة الغيد ودعتني يا خويا
في ذا الليلة وفات عادت في العمات * كحلا الرمقات ودعت دار الدنيا
خطفت عقلي راح مصبوغة الأكماح * بنت الناس الملاح زادتني كيا
حطوها في لكفان بنت عالي الشان * زادتني حمان نفضت مخ حجايا
حطوها في فنجان مطبوعة الاخراس * راني وليت باص واش إلي بيا
في حومتها أخراب كي نجم الكوكاب * زيد أقدح في أسحاب ضيق العشويا
كثرت عني هموم من صافي الخرطوم * ما عادتش أتقوم في دار الدنيا
ماتت موت الجهاد مصبوغة الاتماد * قصدوا بيها بلاد خالد مسميا
عشّات تحت الأكماد موشومة الأعضاد * عين الشراد غابت على عينيا
أحفار القبور سايس ريم القور * لا تطيحشي الصخور على حيزيا
قسمت لك بالكتاب وحروف الوهاب * لا طيح التراب فوق أم مرايا
لو تجي للعناد تنطح ثلث اعقاد * نديها بالزناد عن قوم العد يا
واذا تحلف وراس مصبوغة الأنحاس * مانحسب شي الناس لو تجي ميا
لو انتجي للزحام نفتن عنها عام * نديها بالدوام نابو سهميا
كي عاد أمر الحنين رب العالمين * لا صبتلها من أين نقلبها حيا
صبري صبري عليك نصبر أن ناتيك * نتفكر فيك يا أختي غير انتيا
عودي في ذا التلول رعى كل خيول * واذا والى الهول شاو المشليا
ما يعدل ذا الحصان في حرب الميدان * يخرج شاو القران أمه ركبيا
بعد شهر ما يدوم عندي ذا الملجوم * نهار ثلاثين يوم أوراء حيزيا
توفى ذا الجواد ولى فالأوهاد * بعد أختي مازاد يحيا في الدنيا

شخصية حيزية:

. ولدت (حيزية بنت أحمد بوعكاز) في الذاودية وهي من قبائل بني هلال عام (1855م) في بلدة (سيدي خالد) من أعمال بسكرة. ويؤكد المؤرخ الجزائري (محمد العربي حرز الله)، بأن (حيزية) هي أميرة تنتمي إلى عائلة (بوعكاز) التي هي من فروع عرش (الذواودة).

شخصية سعيد:

سعيد بوعكاز هو ابن عم حيزية، نشأ يتيما فتولى عمـــه أحمد بوعكاز والد حيزة برعايته والحماية أمواله التي ورثها من جــده وهكذا ترب الفتى مع ابنة عمه فجمع بينهـــما حبّ عفيف.

قائمة المصادر والمراجع:

1. مرسي الصباغ، دراسات في الثقافة الشعبية، ط1، دار الوفاء، الإسكندرية، 2001، ص24
2. محمد سعيدي، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص:9.
3.نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، دت، ص3
4. أم سهام دغان، شظايا النقد والأدب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص:41.
5. نبيلة ابراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 1981، ص3.
6. المرجع نفسه، ص:54.
7. سلام رفعت، بحث عن التراث الشعبي: نظرة نقدية منهجية بيروت، الفارابي 1989، ص:196.
8. ينظر: التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي في الثورة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، 198، ص:395.
9. المرجع نفسه، ص:344.
10.عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص:110.
11. سديرة سهام، بنية الزمان والمكان في قصص الحديث النبوي(رسالة ماجستير)، جامعة قسنطينة، 2018، ص:45.
12. سهام سديرة، المرجع نفسه، ص7.
13. سهام سديرة، المرجع نفسه، ص7.
14. سهام سديرة، المرجع نفسه، ص:14.
15. Nacib youcef ;contes algeriennes de djurjura contes populaire ;ed ;publisud,paris,1982,p78
16. أحمد طالب، الشخصية والزمان والمكان، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص:25.
17. محمد بن قيطون، ديوان الشاعر محمد بن قيطون، جمع وشرح، أحمد عاشور، دار الشروق، الجزائر، 2009، ص:58.
18. المصدر نفسه، ص:44.
19.حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، بيروت، الدار البيضاء، 1990، ص:40.
20.محمد بن قيطون، الديوان، مصدر سابق، ص:40.
21.المصدر نفسه، ص: 44.
22.المصدر نفسه، ص: 45.
23. أحمد طالب، الشخصية والزمان والمكان في القصة القصيرة الجزائرية، مرجع سابق، ص: 22.
24. محمد طول، البنية السردية في القصص القرآني، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، دس، ص:7.
25. محمد بن قيطون، الديوان، مصدر سابق، ص:46.
26. سعيد يقطين، البنيات الحكائية في السير الشعبية دط المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997، ص:89.
27. محمد بن قيطون، الديوان، مصدر سابق، ص:56.
28.المصدر نفسه، ص:68.
29. سعيد يقطين، البنيات الحكائية في السير الشعبية مرجع سابق، ص:163.
30. محمد بن قيطون، الديوان، مصدر سابق، ص:40
31. المصدر نفسه، ص: 41.
32. المصدر نفسه، ص: 51.
33. المصدر نفسه، ص: 58.
34. سعيد يقطين، البنيات الحكائية في السير الشعبية مرجع سابق، ص: 221.
35. محمد بن قيطون، الديوان، مصدر سابق، ص:39.
36. علي بن هادية، القاموس الجديد، الشركة التونسية للنشر، تونس، 1977، ص: 504.
37. عبد المالك مرتاض، العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص:7.
38. محمد بن قيطون، الديوان، مصدر سابق، ص: 41.
39. المصدر نفسه، ص: 45.
40. أبو عثمان الجاحظ، الحيوان، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1996، ص:132.
41. محمد بن قيطون، الديوان، مصدر سابق، ص: 46.
42. المصدر نفسه، ص:49.
43. الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح، محمد خفاجي، دار الكتاب، بيروت، 1975، ص: 456.
44. محمد بن قيطون، الديوان، مصدر سابق، ص: 42.
45. المصدر نفسه، ص:49.
46. نعيمة العقريب، قصيدة حيزية(دراسة تحليلية)، د،ط الفيروز للانتاج الفني، مصر، د،س، ص: 265/264.